تحليل الخطاب عند هاريس[١]

أ. د. عبد الحميد النوري عبد الواحد

عضو هيئة التدريس بجامعة أمّ القرى

المملكة العربية السعودية

الاستلام	٢٠١٨/٢/٢٧	المراجعة	٢٠١٨/٣/٢٥	النشر	٢٠١٨/٤/٣٠

الملخّص:

يتناول هذا البحث بالدراسة مجمل الآراء التي طرحها زلّيق هاريس في مقاله الشهير "تحليل الخطاب". ويعتبر هذا المقال من أسبق وأهمّ ما طرح في الموضوع، ولعلّه الأسبق في تبنّي المصطلح أيضا. ولقد حاول هاريس في هذا الضرب من التحليل أن يطبّق منهجه السائد منهج اللسانيّات الوصفيّة، والذي عرف بالمنهج التوزيعيّ على تحليل الخطاب. والمنهج التوزيعيّ في التحليل النحويّ يقضي بالنظر في المكوّنات المباشرة للجملة باعتبارها متواليات، وتواتر هذه المكوّنات وتوزيعها تبعا لمواقعها الإعرابيّة. ولم يتوان هاريس في العمل على إسقاط هذا المنهج على الخطاب أو النصّ. وذلك بالرغم من الاختلاف البيّن بين طبيعة الجملة وطبيعة الخطاب.

الكلمات المفاتيح:

اللسانيّات الوصفيّة، المنهج التوزيعيّ، العلاقات التوزيعيّة، المتتاليات، التواتر، التوافق.

Analyse de discours à HARRIS

Prof. Abdel Hamid Al-Noury

Professor at Umm Al-Qura University

Received	27/2/2018	Revised	25/3/2018	Published	30/4/2018

Résumé:

Nous traitons dans cet exposé les pricipales idées de Zellig HARRIS exposées dans son célèbre article intitulé "Analyse de discours". Par ailleurs nous considérons que cet article est le plus ancien dans le domaine de l'analyse de discours. Toutefois nous soulignons que Harris a essayé dans cet article d'appliquer sa méthode descriptive, connue sous le noms de l'analyse distributionnelle basée sur les séquences des morphèmes et des phrases et leurs occurences.

Mots cles:

Linguistique descriptive – méthode distributionnelle – séquences – occurences – équivalences.

لا شكّ أنّ ما بلغه تحليل الخطاب اليوم ليعدّ على غاية من الأهميّة، لا من حيث التوسّع في جوانب الخطاب نفسه وتداخل الاختصاصات بشأنه، وإنّما من حيث تحليل اللغة ذاتها، باعتبارها المادة الأساسيّة المكوّنة له. ولقد غدا تحليل الخطاب من العلوم البينيّة بحقّ، إذ تتداخل فيه مجموعة من العلوم أو المعارف، من نحو علم الاجتماع وعلم النفس وعلم الإناسة والفلسفة، فضلا عن الرياضيّات ومعارف أخرى. ذلك أنّ الخطاب ليس بنية لغويّة فحسب وإنّما هو سلوك لفظيّ وأبعاد ثقافيّة وأيديولوجيّة، وممارسة للواقع وتعبير عنه، وعلاقة معقّدة بين اللغة والعقل.

ولا غرو في أنّ هاريس يُعدّ من الأوائل ممّن اهتمّوا بتحليل الخطاب وإرساء دعائمه والعمل على بناء منهج لسانيّ لتناوله بالتحليل. وتُعدّ المحاولات التي جاءت بعده كثيرة متنوّعة، وكثيرا ما نسمع اليوم بالتداوليّة أو الذرائعيّة ولسانيّات النصّ ونحو النصّ وقراءة النصّ وتفكيكه والسيميائيّة وتحليل الملفوظات (les énoncés). وكلّها تسعى إلى أن تأتي بما يقنع في فهم النصّ والخطاب عموما، سواء كان خطابا سياسيّا أو أدبيّا أو ثقافيّا أو إعلانا أو غيره.

ويكفي هاريس أن كان سبّاقا في هذا المضمار إلى تحليل الخطاب، وذلك بداية من الخمسينات، عندما كتب مقاله الشهير الموسوم ب "تحليل الخطاب" سنة ١٩٥٢ ونشره في مجلّة **اللّغة** التابعة لجمعيّة أمريكا اللسانيّة[٢].

وتحليل الخطاب عنده يقضي وبكلّ بساطة بتطبيق المنهج اللسانيّ الوصفيّ الذي طبّقه على نظام اللغة وقواعدها، والذي لا يتوانى في تطبيقه على النظام الداخلي للنصّ أو الخطاب. والمنهج المطبّق سواء في اللغة ومكوّناتها، أو في متتاليات الجمل داخل الملفوظات هو نفسه تقريبا، أي المنهج التوزيعيّ.

ويقضي المنهج التوزيعيّ في مستوى الجملة بتحليل الجملة إلى مكوّناتها المباشرة، واعتبار أنّ الجملة البسيطة أو الأوّليّة هي أصغر وحدة دالّة. ويمكن التمثيل للجملة برموز ومعادلات رياضيّة، من نحو أن نقول إنّ الجملة الأساسيّة في الأنقليزيّة وفي جملة اللغات الهنديّة الأوروبيّة تتكوّن من مركب اسميّ مع مركب فعليّ (SN + SV)، ويمكن لهذه المركّبات أن تتوسّع بشكل كبير. وما العلاقات القائمة بين مكوّنات الجملة هي علاقات قائمة على الاستبدال، أي استبدال عنصر بعنصر. وتتمّ هذه الاستبدالات أفقيّا وعموديّا. وأمّا الأفقيّة فمن نحو قولنا:

نام القطّ

أكل القطّ

جاء القطّ..

وأمّا العموديّة فمن نحو:

نام القطّ

نام الرجل

نام الطفل..

والعناصر التي تتكوّن منها الجملة تقوم بينها علاقات تركيبيّة ودلاليّة تحكمها ما يسمّى بقيود التوارد. وتقوم قيود التوارد على سمات دلاليّة تجعل هذا العنصر يتوافق مع ذاك العنصر أو لا يتوافق. وذلك من نحو أنّ "نام" فعل سماته [+ عاقل] و[+حيوان] وإن استعمل استعمالات مجازيّة أحيانا، مثل قولنا "نامت الطبيعة" مثلا. وإذا توافق الفعل "نام" مع الأمثلة المذكورة، فهو لا يتوافق مع أمثلة من نحو *[نام الحائط] أو *[نام القطار]، لأنّ ليس من سمات هذا الفعل أن يتوافق مع الجماد أو الأشياء.

والتوزيع عند هاريس هو توزيع عنصر ما في سياقات مختلفة في مستوى الجملة أو العبارة. ويقضي التوزيع أن يكون عنصر ما في مواقع مختلفة يتوافق والضوابط التركيبيّة الدلاليّة، ولا يمكن أن يكون اعتباطيّا. وتوزيع العنصر "طفل" في الأمثلة التالية يخلص بنا إلى:

جاء الطفل

رمى الطفل الكرة

فرح الطفل

وهذا بالنظر إلى الاستعمال في العربيّة. الأمر الذي لا يتوافق كما نعلم واللغات الهنديّة الأوروبيّة من نحو الأنقليزيّة والفرنسيّة والإيطاليّة مثلا. ذلك أنّ هذه اللغات جميعها تقوم بنية الجملة فيها على مركّب اسميّ مع مركّب فعليّ ولا تكون العكس، أي أنّ الفعل فيها لا يجيء في الصدارة البتّة.

ومن باب التدليل على التوزيع والتوافق أو المطابقة أيضا، يمكن أن نشير إلى مسألة الصفة. وهي وإن كانت في العربيّة تتبع الموصوف في كلّ الحالات أو جلّها، فإنها في الأنقليزيّة تسبق الموصوف. وفي الفرنسيّة قد تسبق الموصوف أو تجيء بعده، ويحكم مجيئها مسائل تتعلّق باختلاف المعنى.

ومثلما هو حاصل فإنّ هذا المنهج التوزيعيّ له مساس بالانعكاس الشرطيّ وعلم النفسيّ السلوكيّ. وذلك في مواجهة الأنحاء الذهنيّة أو العقليّة[٣]. ويتمّ التحليل فيه بدراسة كل العناصر المتحقّقة في الجملة، وبما يتعلّق بإمكانيّاتها أو عدم إمكانيّاتها في الارتباط فيما بينها، لتحقيق الوصف التامّ المنشود للغةٍ ما في المستوى الآنيّ أو السنكرونيّ[٤].

ويقضي المنهج اللسانيّ الوصفيّ عموما، وفي نطاق المدارس البنيويّة الوصفيّة، وبغاية التحليل الاعتماد على مدوّنة ضافية، وعيّنات ممثّلة للّغة المدروسة، وهذا بغاية وصف الظواهر اللسانيّة، وفي جميع المستويات، الصوتيّة والصرفيّة والتركيبيّة، وبغاية وضع قواعد أو أنساق نحويّة. وذلك بغضّ النظر عن المتكلّم والمتلقّي، والوضعيّة التي يتحقّق فيها الكلام أو الخطاب.

تحليل الخطاب:

يتمثّل تحليل الخطاب في المتلفّظ أو الملفوظات من الكلام، سواء كانت منطوقة أو مكتوبة. والخطاب يشمل كلّ نصّ مكتمل أو شبه مكتمل بغضّ النظر عن مضمونه أو نوعه، إن كان نصّا أدبيّا أو سياسيّا أو إعلاميّا أو غيره، وبغضّ النظر عن طوله أو قصره. والمهمّ في الاعتبار أن النصّ هو ما تجاوز الجملة، أو هو متتالية من الجمل، يتحكّم فيها التتالي المنطقيّ للأشياء، وعلاقة كلّ جملة بغيرها من الجمل الأخرى.

ويقضي تحليل الخطاب عند هاريس باتّباع منهج شكليّ هو المنهج التوزيعيّ، وذلك برصد، وقبل كلّ شيء، تواتر الوحدات الدالّة أو جملة المورفيمات باعتبارها قابلة للفصل أو العزل. وهذه الوحدات في مستوى التحليل ليس المهمّ فيها معانيها المفردة المستقلّة، وإنّما معانيها المستفادة من ائتلافها فيما بينها. وهذه المعاني في النهاية هي التي تكوّن معنى الخطاب عموما أو معنى النصّ. وتحليل الخطاب أو بالأحرى تقسيمه إلى وحدات مورفيميّة دالّة يقوم على توزيع جملة من الوحدات كالأسماء والأفعال والأدوات، وتواتر هذه الوحدات، وتصنيفها تبعا لتوزيعاتها. وينتج عن هذا إيجاد أقسام من المتوازنات أو المتكافئات، بمعنى أنّ المتتاليات التي تقبل التوزيع نفسه، وفي المواقع نفسها يمكن جمعُها في أقسام. وهذا من نحو قولنا:

عندما يحلّ البردُ نضطرّ إلى التدفئة

وللتعليق نقول إنّ هذه المتتالية "عندما يحلّ البرد" يمكن تعوضيها بـ:

في فصل الشتاء نضطرّ إلى التدفئة

في شهر سبتمبر نضطرّ إلى التدفئة

عندما تتساقط أوراق الشجر نضطرّ إلى التدفئة..

إنّ هذه المتتاليات التي تتوزّع في مواقع موازنة، والتي يتمّ جمعها في أقسام هي شبيهة بالعناصر المفردة التي سبق أن أشرنا إليها بشأن توزيع عناصر الجملة.

والجمل داخل النصّ لا ننظر إليها باعتبارها متتاليات فحسب، وإنّما ننظر إليها من جهة كونها تربطها علاقات دلاليّة منطقيّة وليس علاقات اعتباطيّة. واستحضارا للمثال التالي:

أخذتْ التفاحةَ وغسلتها ثم قضمتها

نتبيّن أنّ هذا المثال يتألّف من ثلاث متتاليات، هي عبارة عن ثلاث جمل، وذلك بالنظر إلى الإسناد الذي تقوم عليه كلّ متتالية. وهذه المتتاليات تحكمها أدوات هي أدوات عطف. وهي مرتّبة ترتيبا واضحا، لا مجال لتغييره، بحيث لا يمكن بأيّ حال من الأحوال أن نقدّم المتتالية الثانية على الأولى، أو الثالثة على الأولى أو الثانية. والأمر يعود لا محالة إلى واقع الأشياء وإلى باب النظافة أو السلوك الاجتماعيّ. ذلك أنّ القضم لا يتمّ إلّا بعد غسيل التفّاحة، ولا يتمّ غسيل التفّاحة إلّا بعد أخذها.

هذا الملفوظ إذا ما اعتبرناه خطابا أو نصّا لا ينبني على مكوّناته الأساسيّة المباشرة، ولا تتمّ الفائدة من معانيه المفردة أو المركّبة، وإنّما هو يتمّ من مجموع المكوّنات التي تدخل في بنيته، سواء كانت حاضرة أو غير حاضرة ما يجعلنا نلجأ بغاية الفهم إلى التقدير والاستنتاج.

ومن باب التوضيح، ولو بقينا في حدود الملفوظ السابق، فسوف نتبيّن أنّ تتالي هذا الأفعال، وجميعها يتعلّق بصيغة الماضي، لن يفيدنا شيئا بشأن هذا الماضي إن كان قريبا أو بعيدا.

وهذه الأفعال أو الأحداث لا يقوم بها فاعل ظاهر صريح، وإنّما هي تُسند إلى ضمير الغائب المؤنّث المفرد. وليس بإمكاننا أن نعرف إن كان هذا الضمير يعود إلى امرأة أو بنت أو عجوز مثلا. وإن كنّا نعرف بالضرورة أنّه يعود إلى عاقل. وعليه فإنّنا نستبعد أن يحيل على جماد أو حيوان، وذلك بناء على قيود التوارد التي سبق أن أشرنا إليها. ومن باب الملاحظة فإنّ هذه المؤشّرات مفيدة وممّا يمكن استنتاجه. وليس من السهل حقيقة أن نعرف الوضعيّة والسياق الذي جاء فيه الكلام أو الحدث. وتبعا لهذا يحقّ لنا أن نتساءل: من أين أُخذت التفاحة؟ وما هو المكان الذي تتالت فيه الأحداث؟ وأين تمّ غسيل التفاحة؟ ولمَ اقتصر الأمر على القضم دون الأكل؟

كلّ هذه الأبعاد المشار إليها توضّح بلا ريب أنّ الخطاب عموما لا يقوم على بنية لغويّة أو لسانيّة فحسب، وإنّما هو يقوم بالإضافة إلى هذا على جوانب سلوكيّة ومقاميّة وثقافيّة أيضا. الأمر الذي يجعل الخطاب يتداخل فيه جانبان مهمّان، الجانب اللغويّ والبعد الاجتماعيّ. ويعترف هاريس في هذا المجال أنّ تحليل الخطاب تواجهه مشكلتان:

- مشكلة امتداد المنهج البنيويّ التوزيعيّ في اللسانيّات الوصفيّة، من تحليل الجملة إلى تحليل الخطاب.

- مشكلة العلاقة بين الثقافة واللغة، أي بين السلوك اللفظيّ وغير اللفظيّ.

ولتبيان هذا التداخل نشير إلى أمثلة بسيطة، من نحو أن يسأل الواحد غيره:

كيف حالك؟

وللملاحظة إنّ هذه العبارة قائمة على السؤال. ويتجلّى السؤال في استعمال أداة الاستفهام "كيف" التي تفيد الطلب أو الاستفسار عن الحالة أو الهيئة، مثلما يتجلّى في وضع نقطة الاستفهام في آخر العبارة أيضا. غير أنّ المخاطِب والمخاطَب لا ينتظر كلّ منهما من وراء السؤال جوابا. والطرفان يدركان جيّدا أنّ هذا السؤال ما هو إلّا افتتاح للحديث، وبلوغ أغراض أخرى من الكلام لا علاقة لها بالسؤال. ويرى هاريس أن هذه العبارة تعبّر عن سلوك أخلاقيّ أكثر ممّا هي سؤال عن أحوال المتلقّي.(٥)

من هذا الموقف أو المثال تظهر صعوبة تحليل الخطاب، وإرساء منهج ناجع كفيل بأن يحلّل الخطاب، ويجعلنا قادرين على فهمه وفهم مراميه. والصعوبة تكمن عند هاريس في مسألتين اثنتين ألا وهما البحث عمّا يقوله النصّ من جهة، والبحث عن كيف يقوله من جهة ثانية.

بيد أنّ هاريس يعتقد، وبالرغم من هذه الصعوبة أن الأدوات اللسانيّة التي يوظّفها قادرة على أن تحلّل الخطاب، وذلك بغضّ النظر عن طبيعته أو نوعه. علما أنّ الخطاب ما هو في الحقيقة سوى نتاج وضعيّة محدّدة، هي وضعيّة اجتماعيّة بالأساس، سواء تعلّق الأمر بشخص المتكلّم أو بالحوار، أو بمن يكتب في غرفته المغلقة بمعزل عن الآخرين. وهذه الوضعيّات المتشابهة في نظر هاريس لا تنتج بالضرورة خطابات متشابهة، وكما أنّ الخطابات المختلفة ليست بالضرورة أن تكون نتاج أوضاع مختلفة(٦).

أهميّة النحو في تحليل الخطاب:

في اللسانيّات الوصفيّة يظلّ النحو مقوّما أساسيّا من مقوّمات تحليل الخطاب. وهو قائم عند هاريس ومثلما سبق أن أشرنا إلى هذا على منهج توزيعيّ. وفي بداية التحليل يمكن الاقتصار على الجوانب اللسانيّة المتعلّقة بضبط القواعد النحويّة، والنظر في طبيعة الجملة، وفي القواعد المتحكّمة في طبيعة ائتلاف الكلمات فيما بينها.

ومن باب التمثيل فإنّ الجملة الأنقليزيّة أو الفرنسيّة المبنيّة للمعلوم من قبيل:

الصيّاد يقتل الأسد

مثلا، تقابلها الجملة المبنيّة للمجهول:

الأسد يُقتل من قبل الصيّاد

والتغيير الحاصل مثلما يبيّنه المثال، لا يقضي بتغيير مواقع عناصر الجملة فحسب، وإنّما يقضي بتغيير تصريف الفعل من المبنيّ للمعلوم إلى المبنيّ للمجهول. ومن باب المقارنة، مقارنة ما جاء في هذا المثال بما عليه في اللغة العربيّة نجد الأمر في العربيّة مختلفا، ونقول:

يُقتل الصيّاد

ما يوحي بأنّ الأمر لا يتعلّق بتغيير المواقع بين الفاعل والمفعول، وإنّما يتمّ بالحذف والاستعاضة عنه بالمفعول مع تغيير بنية الفعل بطبيعة الحال. وهذا يُستدلّ به على أنّ القواعد المتحكمة في البناء للمجهول مختلفة من لغة إلى أخرى. وضبط القواعد النحويّة المتعلّقة بالجمل عموما من شأنه أن يساعدنا على الدخول إلى تحليل الخطاب أو النصّ. ومن شأنه أن يطوّر تحليل الخطاب بعبارة هاريس(٧).

طبيعة المنهج:

يقوم منهج تحليل الخطاب عند هاريس على العلاقات التوزيعيّة للجمل من جهة، وعلى العلاقة بين اللغة والوضعيّة الاجتماعيّة من جهة أخرى. وهذا من شأنه أن يمكّننا من الحصول على معلومات أو إرشادات بشأن هذين الجانبين، وإن كان التحليل تحليلا شكليّا يهتمّ فيه الدارس بالشكل اللغويّ بالأساس.

والتحليل المطلوب الذي يسعي اللسانيّ إلى أن يتوصّل إليه رهين بمعرفة طبيعة الموضوع أو المادة التي يتكوّن منها الخطاب نفسه بحسب هاريس. والموضوع أو مضمونه وببساطة هو عبارة عن متواليات من الأشكال اللسانيّة. وهذه المتتاليات ما هي في الحقيقة إلّا طائفة من الجمل[٨]. وهذه الجمل بدورها قائمة على تواتر جملة من العناصر أو المكوّنات لا تتعلّق بعناصر اللغة وحدها، وإنّما تتعلّق بعناصر من وراء اللغة، ممّا يمكن أن نستشفّه من النصّ باعتباره مكوّنا وثيق الصلّة بوضعيّات التواصل.

ولتوضيح أبعاد ما نشير إليه يمكننا أن نستدلّ بالمثال التالي المتحقّق في العبارة التالية:

لن يعود خالي من كندا

ومن الملاحظ أنّ العبارة لا تعدو أن تكون جملة. والجملة تفيد النفي القطعيّ في المستقبل، وإن كان ليس بإمكاننا أن نحدّد هذا المستقبل، إن كان قريبا أو بعيدا. والخطاب جاء على لسان المتكلّم، وياء الضمير في "خالي" دالّة عليه. ونحن لا نعرف إن كان المتكلّم مذكّرا أو مؤنّثا، مثلما لا ندري إن كان بالغا أو صغيرا. إلّا أنّ مضمون الرسالة وصل وبلا شكّ، وذلك بالنظر إلى طبيعة الخطاب وطبيعة التواصل القائمة بين الباثّ والتقبّل. ولكن وبالرغم من هذا تبقى في الخطاب نقاط عاتمة، قد نوضّحها بالاستنتاج أو الافتراضات التالية:

- أنّ المتكلّم له خال.
- وأنّ الخال في بلاد كندا، ولا ندري إن كان يعيش فيها أو هو زائر لها.
- وأنّ الخال لن يعود من كندا، ولا نعرف الأسباب التي تمنعه من العودة.
- وأنّ الخال سيبقى في كندا، ولا ندري ما الذي يبقيه.
- وأخيرا إنّ المحلّل لا يعرف دوافع الخطاب، مثلما لا يعرف أيّ شيء عن المخاطِب والمخاطَب، ولا يعرف الوضعيّة الحقيقيّة التي قيل فيه الخطاب.
- وكلّ هذا يدلّ على أنّ هناك كلاما سابقا أو لاحقا لهذا الكلام، ما يجعل السياق واكتمال النصّ شيئا مفقودا. وهذا يدفع المحلّل أو القارئ إلى أن يملأ هذه الفراغات، ويُملي عليه جملة من الافتراضات أو التصوّرات.

إنّ مقاربة الخطاب قصد تحليله وفهمه لا بدّ أن تتمّ انطلاقا من مكوّناته أو من العناصر المكوّنة له. وما هذه العناصر إلّا المادة اللغويّة التي تكوّن نسيجه. وهذه العناصر، ومن حيث الدلالة تشير إلى معان كثيرة، وذلك بالرجوع إلى جملة الكلمات الشائعة فيه، التي يكثر تواترها، والتي يُحمل عليها الموضوع. إنّ هذه الكلمات والتي نطلق عليه الكلمات المفاتيح عادة، من شأنها أن تحيلنا أو تقرّبنا من طبيعة النصّ أو الخطاب. وما هذه الكلمات إلّا عناصر تنتمي إلى المقولات الشائعة أو أقسام الكلام من نحو الأسماء والصفات والأفعال والمشتقات والحروف أو الأدوات بل العبارات أحيانا. وحضور هذه الكلمات لا يكون بالضرورة وحده دالّا، وإنما ظلالها أو الإيحاءات التي توحي بها هي دالّة أيضا. وهذا التصوّر أو هذا المنهج بحسب هاريس قريب من المنهج اللسانيّ الذي ينظر من خلاله إلى بنية اللغة أو نظامها القائم على العلاقات التوزيعيّة[٩].

إنّ تواتر العناصر في المواقع أو الجوارات المتشابهة لا تتعلّق بوصف ودراسة الأبنية اللغويّة وحدها، وإنّما هي تتعلّق، وبالقياس نظريّا، بمكوّنات الخطاب أي بالجمل المتتالية. وتتالي العناصر اللسانيّة في الجملة شبيه بتتالي الجمل في الخطاب أو النصّ. الأمر الذي يجعل الاعتقاد جازما عند هاريس في جدوى وصلاحيّة المنهج التوزيعيّ الذي حاول أن يُسهم بوضع أسسه الأولى في تحليل الخطاب وفهمه.

وهذا يقضي وبلا شكّ، ومن وجهة نظر لسانيّة، بالنظر إلى طبيعة الكثير من المكوّنات في الجملة وطبيعة الكثير من الجمل في حدّ ذاتها. ولا بدّ أن نميّز في هذا المضمار بين الجملة الإثباتية والمنفيّة، والجملة في حالة المبنيّ للمعلوم والمبنيّ للمجهول، والجملة الاستفهاميّة والشرطيّة وغيرها. ولا بدّ من مراعاة والحالة هذه اختلاف اللغات واختلاف أبنيتها. ولا يخفى ومثلما سبقت الإشارة إليه، كيف أنّ عبارات متشابهة من نحو "عندما يحلّ البرد" و"في فصل الشتاء" و"عندما تتساقط أوراق الشجر" هي عبارات متكافئة في الخطاب نفسه لأنّها تجيء في المواقع نفسها.

ولو قلنا بالمنطق الرياضيّ أنّ:

أ ب = أ ج

فبالضرورة تكون: ب = ج[١٠]

ويؤكّد هاريس في هذا الصدد على أنّ هذا المنهج المتّبع هو منهج اللسانيّات الوصفيّة، وهو لا يفتأ يكرّر هذا الأمر من باب التأكيد. وهذا المنهج هو المنهج التوزيعيّ، وليس منهج علم الدلالة، كما يقول. وهو ما يؤكّد على الجانب الشكلانيّ الذي يلتزم به هاريس، لا في تحليل أنظمة اللغة وحدها، وإنّما في تحليل الخطاب أيضا.

وأمام هذه التعقيدات في تحليل الخطاب، لا يُنكر هاريس الصعوبة التي يواجهها في عمله باتّباع المنهج الوصفيّ التوزيعيّ. ذلك أنّ تطبيق هذا المنهج على متتاليات الجمل في النصّ يختلف، وإلى حدّ بعيد عن تطبيقه على متتاليات عناصر الجملة أو مكوّناتها المباشرة. وهذا رغم التشابه الحاصل في تطبيق الفرضيّات أو المتصوّرات على الجملة من جهة وعلى المتتاليات في الخطاب من جهة ثانية. وهذا ممّا توحي به المفاهيم أو المصطلحات التي يتبنّاها هاريس، وذلك من نحو الحديث عن التواتر والمتتاليات والتوزيع حسب الأقسام والمواقع والتوازن أو التكافؤ وغيرها.

الأبعاد الإجرائيّة في تحليل الخطاب:

إنّ المتتاليات المتوازنة أو المتكافئة، والتي تخضع في التحليل إلى التوزيعات نفسها، وإلى تنظيمها في جداول واضحة، تقضي بتتبّع تواتر الوحدات الدالّة (أو المورفيمات) الموجودة في النصّ، وبتحديد الكلمات المفاتيح أو القريبة منها الشائعة في الخطاب، والتي توحي بمدلوله. وفي الخطاب يمكن الانطلاق من هذه الوحدات المشار إليها مثلما يمكن الانطلاق من عبارات شائعة على النحو الذي سبق أن أشرنا إليه أعلاه.

ومن باب التقدير، إذا نجح المنهج في الحالة الأولى فلن يكون ناجحا بالضرورة في الحالة الثانية. الأمر الذي يجعل هاريس يعبّر عن الصعوبات المشار إليها في تحليل الخطاب. وما يجعل تحليله يغلب عليه الجانب التنظيري إزاء الجانب الإجرائيّ. ويظلّ خطابه النظريّ يحوم حول جملة من المصطلحات كالتوارد والتكافؤ أو التشابه والموازنات والمتتاليات والتوزيع المنتظم للأقسام والتجزئة وغيرها.

النتائج الحاصلة:

إنّ من النتائج الحاصلة في تطبيق هذا المنهج، والتي يقرّها هاريس نفسه، ما يمكن ذكره فيما يلي:

- أهميّة وجدوى المنهج اللسانيّ الوصفيّ التوزيعيّ الشائع في تحليل أنظمة اللغة، وعدم التردّد في تطبيق هذا المنهج على الخطاب. والمطلوب في هذا الشأن السعي إلى تجويد هذا التحليل ليكون قادرا، وفي الآن نفسه، على تحليل الجملة إلى مكوّناتها، وتحليل النصّ كذلك.

- إنّ تحليل النصّ، ومثلما هي الحال بالنسبة إلى الجملة يمكن أن يتحقّق من جانبين: الجانب العموديّ والجانب الأفقيّ.
- لا يمكن في التحليل اللسانيّ، سواء في الجملة أو في الخطاب، الاكتفاء بالمكوّنات المباشرة، وإنّما لا بدّ من الاهتمام بالمتكافئات، أي بالعناصر المتوازنة التي تحتلّ المواقع ذاتها في التحليل.
- وما تجدر الإشارة إليه فيما يتعلّق بتحليل الخطاب إمكان الخروج بنتائج مختلفة من النصّ الواحد ومن جملة من النصوص. وكلّ نصّ أو خطاب له طبيعته ومقوّماته الخاصّة. وتبعا لهذا نلاحظ أنّه من الصعوبة إيجاد منهج واحد في التحليل يكون ملائما بأن يطبّق على كلّ أنواع النصوص، وفي كلّ الحالات.
- وفي الأخير نشير إلى أنّ تحليل الخطاب وفي كلّ الحالات يوفّر كمّا من المعلومات تتعلّق ببنية الخطاب وأبعاده، ويحدّد دور كلّ عنصر في هذه البنية، ويكشف لنا عن كيف يتمّ بناء هذا الخطاب.

هذه جملة الآراء والمواقف التي عرضها هاريس في مقاله المشهور "تحليل الخطاب". وقد حاولنا عرض هذه الآراء بأكبر قدر من الموضوعيّة. ولا ننكر أنّ هذه الآراء ما فتئت تتطوّر عند هاريس وعند غيره من المهتمّين بالخطاب وتحليله، سواء في نطاق الدرس اللسانيّ أو خارجه. ولا يخفى أنّ هذه الآراء ما فتئت تبحث كلّها جاهدة عن إيجاد منهج قويم يكون صالحا بأن يطبّق على الخطاب وكلّ أنواع الخطابات. وتظلّ محاولة هاريس من أهمّ هذه المحاولات، ويكفي أنها الأسبق زمنيّا.

قائمة المراجع:

بالعربيّة:

- براون (جيليان) ويول (جورج): **تحليل الخطاب**، ترجمة محمّد لطفي الزليطني ومنيرالتريكي. جامعة الملك سعود، السعوديّة ١٩٩٧ الموافق ١٤١٨.
- حمداوي (جميل): **التداوليّة وتحليل الخطاب**. www.alukah.net

باللسان الأجنبيّ:

- BARRY Alpha Ousmane : "Les bases théoriques en analyse du discours" http://www.chaire-mcd.ca/
- DUBOIS Jean et autres: **Dictionnaire de linguistique**, Larousse, Paris, 2002.
- DUBOIS Jean: "Enoncé et énonciation", in **Langage** 4ème anneé, no 13, Paris, 1969.
- **ENCYCLOPEDIE Universalis:** "Harris Zellig Sabbetai" https://www.universalis.fr/recherche/t/article/napp/5814/q/Harris/
- HARRIS Zellig: "Discourse Analysis", in **Language**, vol. 28, no 4 Linguistic Society America, 1952.
- HARRIS Zellig: "Analyse de discours", tr. Dubois Francçoise Charlier, in **Langage** 4ème anneé, no 13, Paris, 1969.
- MAINGUENEAU Dominique: "L'analyse du discours et ses frontières", in **Marges Linguistiques**, no 9, Mai 2005.
- SUMPF Joseph et DUBOIS Jean: "Problèmes de l'analyse du discours", in **Langage** 4ème année, no 13, Paris, 1969.

الهوامش والإحالات:

[١] زلّيق هاريس لسانيّ أمريكيّ من أصل أوكرانيّ، وهو من تلاميذ بلومفيلد وينتمي إلى المدرسة الأمريكيّ البنيويّة الوصفيّة. أسّس هاريس في نطاق توجّهات هذه المدرسة المنهج التوزيعي الذي يقضي بتوزيع الفونيمات والمورفيمات في نطاق الجملة. ولقد تولّد عن هذا المنهج النحو التوليديّ التحويليّ الذي أسّس له شومسكي في أمريكا، ومنهج المعجم النحو الذي أسّس له غروس في فرنسا.

[2] Zellig Harris: "Discourse Analysis" in **Language** vol. 28, no 4, 1952.

وترجم المقال إلى الفرنسيّة من قبل Françoise Dubois-Charlier في مجلّة **Langage** العدد ١٣ سنة ١٩٦٩

http://www.persee.fr/doc/lgge_0458-726x_1969_num_4_13_2507

[٣] Dubois Jean: " Distribution", in **Dictionnaire de linguistique** p. 213

[٤] Ibid p. 213

[٥] http://www.persee.fr/doc/lgge_0458-726x_1969_num_4_13_2507 ص١٠

[٦] http://www.persee.fr/doc/lgge_0458-726x_1969_num_4_13_2507 ص١١

[٧] http://www.persee.fr/doc/lgge_0458-726x_1969_num_4_13_2507 ص١٢

[٨] http://www.persee.fr/doc/lgge_0458-726x_1969_num_4_13_2507 ص١٣

[٩] http://www.persee.fr/doc/lgge_0458-726x_1969_num_4_13_2507 ص١٤

[١٠] http://www.persee.fr/doc/lgge_0458-726x_1969_num_4_13_2507 ص١٥